دور الحضارة الإسلامية في ازدهار علم الطب بمصر وبلاد الشام خلال القرنين6-7هـ/12-14م

The Role Of Islamic Civilization In The Flourishing Of Medical Science In Egypt And Bilad Alsham During The Two Centuries AH 6-7 / 12-14 CE

مروان بن شوش [1]،

[1] المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة (الجزائر)،merouanebenchouche@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/12/08 تاريخ القبول:2022/04/11 تاريخ النشر: جوان/2022

الملخص:

يعد علم الطب من العلوم النافعة التي لا تستغني عنها البشرية في أي عصر من العصور؛ لأنه يمكن الإنسان من تشخيص الأمراض التي تصيبه، وتحديد الأدوية المناسبة لكل مرض، والبحث عن كل الوسائل التي تحفظ صحته وسلامته. ولما كان علم الطب يحظى بهذه الأهمية أولت الحضارة الإسلامية اهتماما به وكانت لها مساهمات كثيرة في تطوره ، وهذا ماتجلى واضحا في توفير الظروف المناسبة لازدهاره ، وانتشاره في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، واستفاد الغرب الأوروبي من هذه النهضة العلمية ، ومن هذا المنطلق يهدف هذا المقال إلى إبراز جهود المسلمين في مجال العلوم الطبية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بمصر وبلاد الشام وذلك من حيث الطرق تدريس الطب، والمؤسسات التي اختصت بهذا العلم في فترة كانت بلاد المشرق الإسلامي تشهد تداعي قوى الغرب الأوربي الصليبي.

الكلمات المفتاحية:علم الطب ، الحضارة الإسلامية ، المدارس الطبية، المستشفيات

Abstract:

Medicine science one of the useful sciences that humanity cannot indispensable for in any era, because it enables a person to diagnose diseases that afflict him, to identify appropriate medicines for each disease and to search for all means that preserve his health and safety And since medical science in general enjoys this importance, the Islamic civilization paid attention to it and had many contributions to the development of medical sciences, and this was evident in providing the appropriate conditions for its prosperity and spread in various parts of the Islamic world, and Western European benefited from this scientific renaissance, and from this standpoint This article aims to highlight the efforts of Muslims in the field of medical sciences during the sixth and seventh centuries alhijri in Egypt and at bilad alsham in terms of teaching methods and institutions that specialized in this science during a period when the countries of the Islamic East were witnessing the crumbling forces of the Western European Crusader.

Keywords : Medicine, the Islamic civilization, medical schools, hospitals.

المؤلف المرسل مروان بن شوش، benchouch.merouane@ensb.dz

المقدمة:

اعتنى المسلمون منذ القرون الأولى بمختلف العلوم وكان لهم أثر بارز في تطويرها والمساهمة في انتشارها، وعلم الطب واحد من هذه العلوم التي حظيت باهتمام كبير للحاجة الماسة إليه لاسيما وأن الحضارة الإسلامية على وجه العموم شجعت العلم النافع ؛ لما له من انعكاسات وآثار في حياة المجتمع.ويأتي هذا المقال ليجلي جانبا مهما من تاريخ علم الطب في الحضارة الإسلامية بمصر وبلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين حيث كان المشرق الإسلامي في وضع حرج بسبب تداعي قوى الغرب الصليبي عليه،ومن هذا المنطلق نطرح التساؤلات التالية:ماهي جهود المسلمين في تطور علم الطب؟وكيف كان يُدرس،وماهي ومؤسساته ومظاهر ازدهاره في مصر وبلاد الشام؟

1-الأوضاع السياسية لبلاد المشرق خلال القرنين 6-7هـ/12-14م:

تعرضت بلاد المشرق الإسلامي خلال القرن (5هـ/11م) للغزو الصليبي[1]، وكان التشتت والصراعات التي شهدتها بلاد المشرق عاملاً لانتصار الصليبيين في الحملة الأولى، وتمكنهم من تأسيس إمارات لهم في الرها، وأنطاكية ، وطرابلس، فضلا عن مملكة بيت المقدس. ولم يستسلم المسلمون للخطر الذي حل بهم ، إذ ظهرت حركة الجهاد التي أدت إلى ظهور جبهة إسلامية موحدة، كان من أبرز روادها الأوائل عماد الدين زنكي أتابك الموصل(ت.541هـ/1146م) ، ثم ابنه نور الدين محمود (ت.569هـ/1173م) وتجلت جهود الرجلين في توحيد القوى الإسلامية المشتتة بين نهري النيل والفرات، ليتمكن المسلمون بعد ذلك من مواجهة الخطر الخارجي.[2] وقامت دولة بني أيوب (567-648هـ/1171-1250م) التي حلت محل الدولة الفاطمية العبيدية في مصر ،وبسطت نفوذها في معظم بلاد الشام .[3]

ومن الحوادث المعلمية التي شهدها المشرق الإسلامي في اطار الصراع بين والغرب الأوروبي معركة حطين[4]، وفيها وقعت المواجهة بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، والصليبيين بقيادة ملك مملكة بيت المقدس غي دو لوزينان سنة 583هـ/1187م. وترجع أسبابها أساسا إلى قيام أرناط (رينودو شاتيون) أمير الكرك بغزو الحجاز سنة 578هـ/1182م، ذلك أنه استهدف بمشروعه إهانة المسلمين[5]، وتدنيس الحرمين الشريفين في مكة والمدينة النبوية، كما كان يطمح من خلال هذا الهجوم بناء أمجاد تؤهله لأن يصبح سيد أمراء الفرنج في المشرق واعتلاء عرش الممالك الفرنجية في بلاد المسلمين، وبالإضافة إلى ذلك سيحتكر تجارة الشرق الأقصى إذا نجح في غزو الحجاز[6]. ولهذا كانت معركة حطين إحدى أبرز المعارك الكبرى في التاريخ الإسلامي الوسيط،إذ أحدث تحولا في ميزان القوى لصالح المسلمين في بلاد الشام،وبدت حينذاك عبقرية السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي لم يشغل نفسه باستعادة القدس التي كانت شبه ساقطة، لاسيما بعد السيطرة على طبرية وبعدها على عكا أمنع الحصون الصليبية، ومتابعة الزحف حتى الساحل الشامي، وإخضاع عدد من القلاع[7]. ورسمت هذه المعركة طريق الخلاص من سيطرة الصليبيين لبلاد المسلمين،

وهيأت لهم ظروف حياة جديدة لإعادة البناء الإسلامي وتوحيد قوى بلاد المسلمين من العراق إلى مصر ومن اليمن إلى الشام،وحرر المسلمون البيت المقدس فدخلها صلاح الدين، وكسر الصلبان التي فيها، وعمّر المسجد الأقصى[8]. واستمرت الحملات الصليبية على بلاد المشرق الإسلامي إلى غاية القرن السابع الهجري.[9] . لكن رغم هذا الوضع السياسي المتوتر لم يتوقف النشاط العلمي الذي شمل عدة علوم منها الطب، كما أن تلك الظروف ساهمت في الاهتمام به وهذا ماسنوضحه فيمايلي.

2-تعليم الطب في المؤسسات العلمية غير المتخصصة:

اهتمت الحضارة الإسلامية بالتعليم، وخصصت له عدة مراكز علمية،وكانت المساجد والجوامع من أهم المؤسسات التعليمية بحيث لم تكن أماكن للعبادة فحسب بل كانت تدرس فيها مختلف العلوم ومنها الطب، ومن هذه الجوامع نذكر على سبيل المثال:الجامع الأموي في دمشق الذي درس فيه الطبيب موفق الدين البغدادي (ت.629هـ/1231م) ، إذ يقول : « ورجعت إلى دمشق وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس في الجامع.»[10].

وجامع الأزهر(القاهرة) الذي اشتهر بالتدريس فيه أيضا الطبيب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت. 629هـ/1231م)[11]. الذي زار عدة حواضر في بلاد المشرق كانت تشهد حركة علمية مثل الموصل ،ودمشق ، والقاهرة ، والقدس لينهل من علمائها، وقد صار من كبار علماء الطب يومئذ ذلك أن الأطباء في تلك الفترة تمسكوا بآراء جالينيوس في التشريح؛ فكانت أفكاره مسلما بها،ولكن عبد اللطيف البغدادي عارض نظرية جالينيويس في أن الفك الأسفل يتكون من قطعتين وهذا يرجع أساسا إلى كون أن البغدادي أدرك مكمن الخطأ الذي وقع فيه جالينوس وهو اعتماده على تشريح الأطفال الذين ولدوا ميتين ومشوهين.[12]

ب – منازل العلماء: كانت ملتقى طلاب العلم، ومركزا علميا له أثر بارز في الحياة العلمية، وهذا رغم انتشار المساجد والمدارس في مختلف أنحاء العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط. ففي مجال الطب نجد بعض الأطباء قد اتخذوا منازلهم مكانًا لاستقبال طلبتهم، وتدريسهم فيها[13]. ومن أشهر هذه المنازل: منزل الطبيب أبي البيان بن المُدوَّر الملقب بالسديد (ت.580هـ/1184م)، وهو من أطباء السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولما كبر سنه وأصبح عاجزا عن الحركة ، عكف في بيته بالقاهرة مشتغلا بالطب.[14]

ب – المجالس الطبية:هي الأخرى تعد إحدى المراكز التعليمية التي تُعنى بتدريس الطب، حيث كان يرتادها الكثير من طلبة الطب، وقد خصصت في أماكن معينة لأطباء معلومين يقومون بتقديم دروسهم في أوقات محددة[15]، ومن هذه المجالس: مجلس الطبيب الحسن بن نوح القُمري ببخارى، الذي كان مشهورا بالطب وبارعا في أصوله وفروعه، ولحق به ابن سينا(ت. 428هـ/1036م) وهو شيخ كبير، فكان يحضر مجالسه[16]. ومجلس الطبيب مهذب الدين بن النقاش(ت. 574هـ/1178م)، بدمشق، وبالإضافة إلى ذلك كان يشتغل بالبيمارستان النوري الكبير بدمشق.[17]

3 – تعليم الطب في المؤسسات العلمية المتخصصة:

أ-المدارس:

لقد كان من نتائج اهتمام المسلمين بعلم الطب ظهور مدارس تُعنى بالعلوم الطبية واختيار الأطباء المبرزين للتدريس في تلك المدارس والإشراف عليها،[18] فظهرت في بلاد المشرق الإسلامي خلال القرنين 6-7هـ مدارس مختصة في الطب، ومن هذه المدارس: الأولى المدرسة الدخوارية بدمشق، أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار(ت.628هـ/1230م) في سنة 621هـ/1224م، وفي رواية أخرى أنشأها عبد المنعم علي الدخوار وجعلها مدرسة يدرس فيها من بعد الطب، ووقف عليها ضياعا، وأوقافا أخرى لتسييرها، ووصى أن يكون المدرس بها شرف الدين علي بن الرحبي (ت667هـ/1268م)[19] ،ومن مدرّسيها واقفها عبد الرحيم عبد الرحيم الدخوار(ت.628هـ/ 1230م)،ثم شرف الدين الرحبي (ت.667هـ/1268م)[20]، وجمال الدين الرحبي(ت.658هـ/1259م)[21]، ونجم الدين اللبودي (ت.670هـ/1271م)[22] ، وغيره. والثانية المدرسة الدنيسرية الربيعية، أنشأها العالم والأديب عماد الدين محمد الربيعي الدنيسري (ت.686هـ/1287م)[23]، ودرّس بها القاضي نجم الدين الباجريقي (ت.699هـ/1299م)[24]. والثالثة المدرسة اللبودية النجمية، أنشأها نجم الدين يحي بن محمد اللبودي في 664هـ/1265م، وأول من درّس بها جمال الدين الزواوي (ق.7هـ/13م) المغربي[25]. والرابعة المدرسة المهذبية بمصر، وهي تنسب إلى الطبيب مهذب الدين المعروف بأبي حُليقة[26]، ولا شك أن لهذه المدارس أثرا في تطور العلوم الطبية في بلاد المشرق الإسلامي.

ب- **البيمارستانات(المستشفيات):** هي كلمة فارسية مركبة من "بيمار" بمعنى مريض، أو عليل، و"ستان" بمعنى مكان أو دار، فهي إذا دار للمرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت (مارستان)، وهي تعني في وقتنا الحاضر المستشفى.[27] وظل البيمارستان محافظا على مكانته طيلة العصور الإسلامية التي سبقت المدارس الطبية المتخصصة، فكان هو القاعدة الأولى لتدريس علم الطب نظريا وعمليا، وفي العصر الأيوبي بقيت البيمارستانات تؤدي وظيفة مهمة، إذ تقدم الدروس العملية للطلبة، حيث الحالات المرضية ماثلة أمامهم، وقد استمر هذا النمط من التدريس حتى في العصور المتأخرة[28] وكانت البيمارستانات تسير بنظام محكم لضمان تحقيق الأهداف المنشودة، كما قسمت إلى قسمين منفصلين بعضها عن بعض قسم للذكور، وقسم للإناث وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة،وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء وقوام ومشرفين.وفي كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض.[29]

لقد أعجب الرحالة ابن جبير(ت.614هـ/1217م) بأحد البيمارستانات التي أنشأها صلاح الدين لكونه من مفاخر مدينة القاهرة، وهو مجهز بما يحتاجه المرضى من الأطعمة والأدوية وغيرها من المستلزمات فضلا عن نظامه المتناسق الذي يكفل تقديم الخدمات اللازمة للمرضى.[30] ومن أشهر البيمارستانات نكر منها: البيمارستان النوري بدمشق، وهو ينسب إلى الملك نور الدين محمود زنكي (ت.569هـ/1173م) ، وقد اشتهر هذا البيمارستان بتدريس الطب، إضافة إلى قيامه بمعالجة

المرضى[31]، وفي هذا السياق يذكر الطبيب ابن أبي أصيبعة وهو يترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم(ت.570هـ/1174م)، أنه كان يدور على المرضى بالبيمارستان النوري، ويتفقد أحوالهم، ومع الأطباء لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لا يتأخر عنهم، وكان بعد فراغه من ذلك، وطلوعه إلى القلعة ، وافتقاده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي بالبيمارستان، وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدون بين يديه، و تجرى مباحث طبية ويقرئ التلاميذ، ويبقى معهم ثلاث ساعات.[32] كما عمل بهذا المستشفى مهذب الدين ابن النقاش (ت.574هـ 1178م) وهو عالم باللغة العربية والأدب، واشتغل بصناعة الطب، وتوجه إلى مصر وأقام بالقاهرة مدة ثم رجع إلى دمشق . وموفق الدين بن المطران (ت.587هـ 1191م) الذي خدم بصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأسلم ابن المطران في أيامه. وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وله خزانة فيها ما يناهز عشرة آلاف من الكتب الطبية، وتولى معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان.

كما اشتهر أبو الفضل بن عبد الكريم المهندس(ت.599/1202م)، وكان يُعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة قبل أن يُعرف بالطب.وموفق الدين عبد العزيز (ت.604هـ 1207م) فكان في أول الأمر فقيها ، ثم اشتغل بعد ذلك بصناعة الطب وخدم في البيمارستان الكبير النوري. وغيره[33] .

والبيمارستان الناصري (الصلاحي)، وهو ينسب إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، ذلك أنه لما ملك الديار المصرية سنة 567هـ/1171م استولى على قصر الفاطميين الذي كانت به قاعة بناها العزيز بالله سنة 384هـ/994م، فجعلها صلاح الدين بيمارستانا، وهو البيمارستان العتيق داخل القصر[34].وأوقف له أوقافا كثيرة، وعين له أطباء، وهيأه بمختلف المستلزمات من أفرشة وأسرة للمرضى، وعقاقير، وأغذية، وكان السلطان يتطلع أحواله كلها بالبحث والسؤال[35]. ومن مدرِّسي البيمارستان الصلاحي، رضي الدين الرحبي(ت.631هـ/1233م) ، وإبراهيم بن الرئيس ميمون (ت.630هـ/ 1232م)، وموفق الدين أبو العباس (ت. 688هـ/1269م)[36] . وبيمارستان الإسكندرية الذي أنشأه صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت.589 هـ/1193 م) لما سار إلى الإسكندرية سنة 577هـ/1181م.[37] و بيمارستان بعكا،الذي تم تأسيسه بعد فتح الملك الناصر صلاح الدين عكا سنة 583هـ/1187م[38] ،حيث جعله لعلاج سكان المدينة من المسلمين والنصارى، وأوقف عليه أوقافا عديدة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين عبد اللطيف أبي النجيب السهروردي (ت.563هـ/1167م)[39]. والبيمارستان الصلاحي بفلسطين الذي أنشأه صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس سنة 563هـ/1166م[40]. والبيمارستان الْقَيْمَرِيُّ أو مارستان الصالحية أنشأه،وأوقفه الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن ابن موسك القيمري (ت.654هـ/1256م).[41]

كما أنشأ الملك المنصور أحد أمراء المماليك البحرية البيمارستان المنصوري بالقاهرة سنة682هـ/1283م وسمي أيضا مارستان قلاوون وقد بني على مساحة كبيرة وأوقف عليه أملاكا كثيرة ويعد

هذا الأخير من المستشفيات المشهورة في الحضارة الإسلامية لما كان يقدمه من خدمات للمرضى في الداخل والخارج ، كما تميز بنظامه الراقي من حيث المرافق المتنوعة لمعالجة المرضى وتقديم مايحتاجونه.[42]

وبالإضافة إلى ذلك وُجدت المستشفيات المتنقلة أو المحمولة التي كانت للسلاطين والملوك يستخدمونها في حروبهم.[43] وكان انتشار هذه المؤسسات من نتائج انتشار الثقافة الطبية والنتشاط التعليمي. وعلى ضوء هذه المعطيات التاريخية يتبين أن المشتغلين بالطب في هذه المؤسسات هم من مشاهير الأطباء في العالم الإسلامي يومئذ وهذا إن دل على شيئ فإنما يدل على أن القائمين على تلك المؤسسات كانوا يختارون من هو متميز بالعلم الواسع ومتمكن في الطب.

4 – نظم وطرق تدريس العلم الطب:

ثبت تاريخيا أن تعليم الطب في الحضارة الإسلامية لم يكن بطريقة عشوائية، بل كان يتم بطرق وضوابط دقيقة يشرف عليها السلاطين والأمراء وأهل الاختصاص، وهذا ما كان له الأثر الواضح في تطور الدراسات الطبية وازدهارها خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين.[44]

وكان الدارس للعلوم الطبية من الناحية النظرية يتوجب عليه أن يستهل تعلمه بدراسة الكتب الطبية الأساسية بنفسه أو بإشراف أحد أساتذته المختصين وفقًا لمنهج تعليمي منظم، بحيث يقوم بقراءة كتب أبقراط (460 – 377 ق. م)، وجالينيوس (201 – 131 ق.م)،وحنين بن إسحاق(ت. 298هـ/910م)، وابن سينا (429هـ/1037م)، والرازي (ت. 618هـ/1221م) وكتب التشريح وغيرها.والمرحلة الثانية التدوين، وهو من العناصر الأساسية، لدراسة الطب، إذ يعد أول المعرفة بالطب، فلم يكن يسمح لطلبة الطب المبتدئين أن يقطعوا برأي في العلل أو العلاجات ما لم يكن ذلك الطبيب على مكتسبات سابقة قد دونها لآراء أطباء مشهورين، وكذلك تدوين المشاهدات الخاصة بهم واختباراتهم الشخصية[45]. والثالثة حضور الدروس المنظمة التي يعقدها الأطباء المشهورون بصناعة الطب، وفي هذا السياق أفادنا ابن أبي أُصَيبعة بوصف إحدى الدروس الطبية التي كان يعقدها شيخه الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار(ت.628هـ/1230م)[46] ، فكان إذا تفرغ من البيمارستان، وتفقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرهم وغيرهم ويأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة، ولا بد له مع ذلك من نسخ، فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين، وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ، ويبحث معه فيه ويفهمه إياه بقدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم، وإن كان الموضوع يحتاج إلى أفضل بحث، أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير، وكان لا يُقرئ أحدا إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ،وينظر فيه ويقابل به.[47]

ومن خلال ما أورده ابن أبي أصيبعة نستخلص الأعمال التي يقوم بها الطبيب في البيمارستان، وطريقة معالجته للمرضى، وهي فحص المرضى وتسجيل الملاحظات التي عاينها، ثم يقوم بدراستها،

وكذلك أفادنا النص في إبراز منهجية تقديم الدرس في العلوم الطبية، حيث كان الطبيب يحضر درسه الذي سيعرضه على طلبته،ثم يعرضه ويتباحث مع طلبته في ذلك الموضوع.

وأما من الناحية التطبيقية فقد اتبع الأطباء المسلمون في الدراسات الطبية طريقة علمية، تقوم أساسا على تشخيص الأمراض، وعلاجها والمسماة حديثا بالطريقة الكلينكية أو السريرية،والتي لم يأخذ بها الغرب الأوربي إلا في عصور متأخرة وهي كما يلي:

أ – مراقبة المرضى وملازمتهم داخل البيمارستانات لتشخيص أمراضهم،ومن ثمة وصف العلاج لكل حالة وتدوين ذلك في مذكراتهم.[48]

ب – مراقبة كبير الأطباء عند فحصه ومعالجته للمرضى ومرافقته أثناء المرور على المرضى لتفقد أحوالهم.وفي هذا الصدد يذكر ابن أبي أصيبعة (ت.668هـ/1269م) عن شيخه الطبيب مهذب الدين الدخوار حيث قال : «لازمته في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان، فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب»[49].ويذكر في موضع آخر أنه لما يفرغ الحكيم مهذب الدين(ت. 610هـ/1213م)، والحكيم عمران (ق.7هـ/ 13م) من معالجة المقيمين بالبيمارستان ويكون معهم، ثم يجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي(ت.631هـ/1233م)، فيعاين كيفية استدلاله على الأمراض،وما يصفه للمرضى من أدوية، كما يتباحث معه في كثير من الأمراض وطريقة علاجها.[50]

ج – حضور المناقشات والمناظرات والاجتماعات العلمية،التي كانت تدور بين أساتذة الطب،حول مرض لم يتوصل إلى علاجه، وما إلى ذلك، وهذا ما يشير إليه ابن أبي أصيبعة وهو يترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم (ت.570هـ/1174م) ، ويذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري بدمشق ويتفقد أحوالهم وبعد فراغه يجلس في إيوان البيمارستان ويتوافد إليه الطلبة ويتباحث معهم.[51]

د –القيام بدراسات عملية على المرضى وتجريب الأدوية الجديدة عليهم، وتدوين ذلك مع الحرص على عدم المجازفة.[52]

وبناء على ما سبق ذكره يمكن القول أن الطب في هذه الفترة قد بلغ درجة عالية من التطور والازدهار، إما من حيث التنظيم أو من حيث الممارسة والتدريس، وهذا ما جعل الغرب الأوروبي يقتبس تلك النظم التي تعد ضمانه لنجاح الدراسات الطبية.

وأما رئاسة الطب فتسند في الغالب إلى رئيس الأطباء، وهو ما يعرف في العصر الحاضر بعميد كلية الطب، أو رئيس الأطباء في المستشفيات الكبرى. وكان لا بد لمن يترشح لهذا المنصب من توقيع سلطاني، بسبب أهمية المنصب والمسؤولية الكبيرة المنوطة به[53] وقد أطلعنا القلقشندي (ت.821هـ/1418م) بنموذجين من هذه التوقيعات أبرز فيهما أهمية صناعة الطب، وتفاوت رتب الأطباء والشروط والآداب التي يجب أن تتوافر في كل من يتولى هذه المهنة، وواجبات الرئيس في فحص الأطباء وامتحانهم، والمطالبة بإقصاء كل من لا يمتلك المؤهلات العلمية، وهذا لا يتم إلا بعد إجراء امتحان خاص بهم.[54]

ولهذا كان من واجب الدولة مراقبة الأطباء، ولا تسمح لمن ليست له كفاءة وخبرة بممارسة مهنة الطب حفاظا على صحة المجتمع ،ولمنع الغش،وأسند ذلك للمحتسب للإشراف على شؤون الطب وفي هذا السياق أورد الشيزري الشافعي (ت.590هـ/1194م) في كتابه نهاية الرتبة أن المحتسب له أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين في كتابه المعروف محنة الطبيب، ويمتحن على سبيل المثال الكحالين[55] بكتاب حنين بن اسحاق.[56] وهذا فيه إشارة إلى أن الطب تفرع إلى تخصصات ولكل تخصص شروط الإنتقاء مما يدل على درجة التطور والرقي الذي بلغته الحضارة الإسلامية يومئذ في هذا الجانب.

وكان أيضا من واجب المحتسب مراقبة الأطباء، ويأخذ عليهم عهد الطبيب اليوناني ابقراط الذي وضع فيه شروط ممارسة الطب، ويُحلفهم أن لايعطوا دواء مضرا، ولا يفشوا الأسرار، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، وكذلك لايصف للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة.وبالإضافة إلى ذلك ينبغي للطبيب أن تكون له جميع أدوات الطب.[57] ويتبين من خلال ماسبق مدى أهمية مهنة الطب في المجتمع الإسلامي ومدى مساهمات الحضارة الإسلامية في تنظيم مهنة الطب وتحديد ضوابطها وآدابها .

ونتج عن هذه الحركة العلمية الطبية والتنظيم المحكم للمؤسسات العلمية الطبية تخرج الكثير من الأطباء نذكر منهم على سبيل المثال: الطبيب علاء الدين بن النفيس (ت.687هـ/1290م) الذي أخذ الطب عن ابن الدخوار،[58] وصنف عدة كتب في الطب منها،"الموجز في الطب،اختصر به قانون ابن سينا، و" الشامل "، و" شرح فصول أبقراط ، و" بغية الفطن من علم البدن.[59] وكان ابن النفيس من عباقرة أطباء التشريح ، بحيث كان ينصح بالتشريح والمقارنة في ذلك بين أجسام الحيوانات ؛لأن هذا عامل مساعد في فهم جسم الانسان ، كما أن التشريح يؤدي إلى فهم وظائف الأعضاء وهذا بدوره يكمن من معالجة المرضى، وبالاضافة إلى ذلك اهتم بدراسة تشريح القلب والحنجرة بدراسة وظيفة التنفس داخل الرئة ، وانتقال الدم من الرئة الى القلب ، ومن القلب الى الرئة ، وعكف ابن النفيس على التأليف في عدة فنون وعلوم ومن مصنفاته في الطب نذكر منها الكتاب الشامل في الطب، الموجز في الطب،وشرح قانون ابن سينا في الطب ، تفسير العلل وأسباب الأمراض، مقالة عن الدورة الشريانية وغيرها كل هذا ينهض دليلا على مكانة ابن النفيس في علم الطب ومساهماته العلمية ،[60]

وقد بلغت شهرة ابن النفيس العلمية الملك الأيوبي الكامل، فاستدعاه إلى مصر للإستفادة من علمه، وعينه رئيسا للمستشفى الناصري، ثم رئيسا للمستشفى المنصوري. فهذه الشواهد التاريخية تبين مدى دور السلاطين والأمراء في تشجيع الحركة العلمية التي أثر في مختلف مناحي الحياة[61]. ومن المتخرجين من هذه المؤسسات العلمية السويدي بن الحكيم العلامة شيخ الأطباء(ت.690هـ/1291م) الدمشقي الشافعي الذي أخذ الطب عن المهذب الدخوار،وبرع في الطب.[62]

وابن أبي أصيبعة(ت.668 / 1270م) الطبيب المؤرخ كان مقامه في دمشق،وزار مصر سنة 634هـ /1236م، وأقام بها طبيبا مدة سنة.ومن كتبه عيون الأنباء في طبقات الأطباء والتجارب والفوائد

وحكايات الأطباء في علاجات الأدواء،ومعالم الأمم"[63].وهذا مايوضح أن المدارس الطبية والبيمارستانات كانت بمثابة جامعات تخرج منها مشاهير الأطباء في العالم الإسلامي الذين كان لهم دور في تطور العلوم الطبية، ونشر الثقافة الطبية خلال العصر الإسلامي الوسيط،كما انتقلت هذه التجربة الرائدة في تاريخ الحضارة الإسلامية إلى بلاد المغرب الإسلامي التي شهدت هي الأخرى العناية بهذه المؤسسات، فعلى سبيل المثال بنى يوسف بن يعقوب الموحدي(ت.595هـ/1198م) بيمارستانا في مراكش واختار له مكانا فسيحا، وأمر البنائين بإتقانه.[64]

وبالإضافة إلى ذلك ظهرت العناية بمداواة الحيوانات وهومايُعرف بالطب البيطري،ووُضعت مصنفات في هذا العلم مثل "كاشف الويل في معرفة أمراض الخيل" للابن المنذر(ت.741هـ/1340م)، مما جعل الغرب الأوروبي يقتبس تلك النظم التي تعد ضمانه لنجاعة الدراسات الطبية وهذا بعدما كان الطب الغربي يشهد حالة التخلف والتدهور. ومن الأدلة على ذلك أن الأوربيين كانوا ينظمون حالة الأطباء في الممالك الإفرنجية وفقا لما كان معمولا به في البلاد الإسلامية ومن الشواهد على ذلك أنه لم يكن يسمح لأي طبيب مزاولة مهنة الطب قبل أن يمتحن بإشراف نقيب الأطباء.[65] كما انتشرت المستشفيات المتخصصة في بعض الأمراض.[66]

الخاتمة:

نستنتج من خلال ماسبق ذكره دور الحضارة الإسلامية في ازدهار علم الطب وهذا ماتبين في بناء مؤسسات علمية متخصصة في تدريس العلوم الطبية،وكان للسلاطين والأمراء دور بارز في تنشيط الحركة العلمية بالمشرق الإسلامي خلال القرنين 6-7 الهجريين ،ذلك أنهم جلبوا الأطباء، وشجعوهم على نشر الثقافة الطبية،وهذا رغم الظروف السياسية الحرجة التي ميزت المنطقة، وكذلك نستنتج دور الوقف في ازدهار الحياة العلمية بحيث كان الميسورون والأمراء يتنافسون في وقف أموالهم وأراضيهم على تلك المؤسسات ، وقد أضفت هذه الجهود إلى تطور الطب،وكثرة المصنفات العلمية ، واستفاد العالم الإسلامي والغرب الأوروبي من هذه الحركة العلمية التي كانت استجابة لظروف العصر الذي تميز بتداعي الخطر الأوروبي الصليبي.

و نستخلص أيضا من المعطيات التاريخية السابقة مدى قوة ونجاعة التنظيم المحكم الذي كان سائدا في المؤسسات الطبية المتخصصة وهذا ما جعلها تحظى بشهرة ومكانة في العالم الإسلامي لما قدمته من خدمات للمجتمع، وكل هذه الحقائق تبين مساهمة الحضارة الإسلامية في علم الطب.

الهوامش:

1 – جاءت هذه الحملات في وقت كان الوضع السياسي للعالم الإسلامي يتميز بالضعف والتفكك، وقد اصطلح المؤرخون على تسميتها بالحركة الصليبية، بدأت رسميا عندما أعلن أحد بابوات روما وهو إربان الثاني مولدها في خطبة ألقاها بمجمع كليرمونت: الكنسي في فرنسا سنة 1095م ودعا فيها الغرب لحمل الصليب لاسترجاع بيت المقدس «جوزيف نسيم يوسف، الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981،ص.7».

2 – سعيد عبد الفتاح عاشور،الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة، القاهرة، 1996، ،ص. 10.

3 –عبد الفتاح عاشور،نفسه،ص. 9،د.حسن ابراهيم حسن،تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ،ط.14، دار الجيل بيروت ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة،1996م،ج. 4،ص.101

4 –جمال الدين ابن واصل ،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،تحقيق :د.جمال الدين الشيال ، ،د.ت.ط.ج.،ج.2ص.190

5– شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط. 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ/1997م، ،ج.3، ص.247، د.عصام الدين شبارو،سلاطين المشرق العربي، السلاجقة – الأيوبيون ودورهم السياسي والحضاري ، دار النهضة العربية ، بيروت1994،ص.148-149

6–محمد حسين محاسنة ،معركة حطين ،المجلة العربية للثقافة ،السنة الرابعة، العدد السادس والعشرون،تونس،1981،ص.156

8– أبو الحسن علي،عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري،ط.1،دار الكتاب العربي، بيروت، 1417هـ/1997م ،ج. 10، ص. 25 وما بعدها.

8 – نفسه، ج. 10، ص. 37 وما بعدها؛ محاسنة، المرجع السابق، ص. 165.

9 – شبارو،المرجع السابق،ص.95

10 – ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن الخليفة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. ط. ، ص. 688.

11 – ابن أبي أصيبعة، نفسه، ص. 683 وما بعدها، ابن شاكر، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ط. 1، دار صادر، بيروت، 1973-1974، ج. 2، ص. 385 وما بعدها.

12– أصيبعة، نفسه ،ص. 683ومابعدها،ابن شاكر،نفسه،ج.2،ص.385ومابعدها،علي عبد الله الدفاع،أعلام العرب والمسلمين في الطب ،ط.1،مؤسسة الرسالة،1983،ص.188 -189

13 – د. إبراهيم محمد المزيني، المدارس الطبية المتخصصة في الحضارة الإسلامية، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، العدد 13، ذو القعدة 1415هـ/أفريل 1995م، ص.25

14 – نفسه، ص. 572 وما بعدها.

15 – نفسه، ص. 56.

16 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص، ص. 435، 436؛ خير الدين بن محمود بن محمد علي بن فارس، الزركلي، الأعلام، ط. 5، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م،ج. 2، ص. 224.

17 – ابن أصيبعة،المرجع السابق، ص. 636.

18 – المزيني، نفسه، ص. 350.

19 – كردعلي، خطط الشام، دمشق، 1998م ، ج. 6، ص، ص. 102، 103.

20 – ابن أبي أصيبعة، نفسه، ص. 676.

21 – نفسه، ص. 682.

22 – نفسه، ص. 663 وما بعدها.

23 – عبد القادر بن محمد النعيمي،الدارس في تاريخ المدارس،تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1990م،ج. 2، ص. 105؛ كردعلي،نفسه،ص. 103.

24 – ابن قاضي شهبة، تقي الدين، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، ط. 1، عالم الكتب، بيروت، 1407هـ ، ج. 2، ص. 180.

25 – النعيمي، نفسه، ج.2،ص.106، 107.

26 – ابن أبي أصيبعة، نفسه، ص. 598؛ ؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م،ج.4،ص. 209، 210.

27 – أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطار، ط. 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1407هـ/1987م، ج. 3، ص. 978؛ د. أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط. 2، بيروت، 1401هـ/1981م، ص، ص. 3، 4؛ الفيض المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت. ط.، ج. 6، ص. 500».

28 – المزيني، نفسه ، ص. 357.

29 – عيسى بك ،نفسه،،ص. 18–19

30 – محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، دار الهلال، د. ت. ط.، بيروت ،ص.26

31 – ابن أبي أصيبعة، المرجع السابق، ص. 628.

32 – نفسه، ص. 628.

33 – عيسى بك،المرجع السابق،ص. 216–217

34 – عيسى بك، نفسه، ص. 77؛ تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م،ج.1، ص. 187.

35 – ابن جبير، المصدر السابق،ص. 24.

36 –عيسى بك، نفسه ص.79 وما بعدها.

37 –عيسى بك، نفسه ، ص.82،المقريزي، الخطط،ج.3،ص.407.الزكلي،المرجع السابق،ج.8،ص.220

38 – ابن الأثير، المصدر السابق، ج. 10، ص. 22 وما بعدها.

39 – أبو شامة، المصدر السابق، ج. 3، ص. 312، ابن واصل، المصدر السابق، ج. 2، ص. 247؛ أبو العباس شمس الدين ،ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان المحقق: إحسان عباس ، ط.7، دار صادر – بيروت، 1994ج. 3، ص. 205.

40 – ابن خلكان، نفسه، ج. 7، ص. 200؛ ابن واصل، نفسه، ج. 2، ص. 408.

41– أبو الفداء إسماعيل ابن كثير ، البداية والنهاية، تحقيق عبد الرحمن بن المحسن التركي، ط. 1، دار هجر للطباعة 1418هـ/1997م،ج.17 ،ج .17 ، ص.345 ،بك،نفسه، ص.235

42 – د.محمد كامل حسين ،الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ليبيا، ص.232، المقريزي، الخطط،ج.4،ص.268، عيسى بك،المرجع السابق،ص.85

43 – كامل حسين ،نفسه،ص.233، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي،أخبار العلماء بأخبار الحكماء ،المحقق: إبراهيم شمس الدين، ط.1، 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426 هـ – 2005،ص298.

44 – المزيني، نفسه، ص. 364.

45 – المزيني، نفسه، ص. 367، 368؛ الزركلي، نفسه، ج. 1، ص. 51؛ المنجد في اللغة والأعلام، ط. 23، بيروت، 1975، ص. 26، ص. 137.

46 – المزيني، نفسه، ص،. 367، 368.

47 – ابن أبي أصيبعة، نفسه، ص. 732؛ المزيني، نفسه، ص. 368.

48 – المزيني، نفسه، ص،. 368، 369.

49 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص. 731؛ المزيني،المرجع السابق، ص. 339

50 – ابن أبي أصيبعة، نفسه،ص. 675، 731.

51 – نفسه، ص. 628؛ المزيني، نفسه، ص. 339.

52 – المزيني، نفسه، ص. 370.

53 – أحمد بن علي القلقشندي مآثر الأناقة في معالم الخلافة ،ط2،الكويت،مطبعةحكومة الكويت.1985، ج.11ص. 371؛ المزيني،نفسه،ص. 366

54 –القلقشندي، نفسه،ج.11،ص. 371ومابعدها

55– الكحال :هو الطبيب المختص بمعالجة أمراض العين دون سائر الجسد.«مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، ط.1، مؤسسة الرسالة ،1416 هـ/1996م بيروت،ص ،365»

56– د.أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة النهضة بمصر ،د.ت.ط.ص.308، عبد الرحمن جلال الدين العدوي الشيزري الشافعي، نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص.99-100

57 –بدوي، نفسه ، ص.308، الشيرازي، نفسه، ص.98

58– النعيمي، المصدر السابق.ج.2، ص. 103 ابن كثير، المصدر السابق ،ج.17،ص.615

59 –الزركلي، المرجع السابق،ج.4 ص. 271

60 -عمر فاروخ عمر،تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون،ط.2، دار العلم للملايين بيروت، 1972، ص.555، عبد الله الدفاع،المرجع السابق ،ص.212-213

61 -عبد الله الدفاع،نفسه،ص.200-201

62 -النعيمي، المصدر السابق،ج.2، ص.101 شمس الدين،الذهبي، العبر في خبر من غبر،تحقيق: أبو المهاجر محمد السعيد البسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت. ط ،ج.3،ص. 372

63 -الزركلي، المرجع السابق،ج.1، صفحة 197، بردي،ابن ثغري، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتاب مصر، د.ت.ط،ج.7،ص.229

64 - عيسى بك، المرجع السابق، ص.280-281 ،عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين،لمعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين المحقق: الدكتور صلاح الدين الهواري، ط. الأولى، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت1426هـ - 2006 ص.209

65 - حسان الحلاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية2020م،ص.435، الزركلي،المرجع السابق،ج.4ص.198،أبو المظفر أسامة بن منقذ ،الاعتبار،حرره: فيليب حتي، د. ف.مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ت.ط.ص.137 ، بدوي،المرجع السابق،ص.313-314

66 - *PHILIP K.HITTI History of the Hrabs* (éd. edition tenth). Macmillan *education* ltd hongkong.1970.p.663